الشيخ محمد بن العربي العلوي،
رائد الإصلاح والوطنية بالمغرب الأقصى
Sheikh Mohammed bin Larbi Al-Alawi, the pioneer of reform and patriotism in Morocco

اسم ولقب المؤلف المرسل للمقال: قادة دين- Dine Kada صص369- 397
الدرجة والعنوان المهني: أستاذ مساعد ب- المركز الجامعي نور البشير- البيض
البريد الإلكتروني: eldine.kd@gmail.com

تاريخ استقبال المقال: 2020/06/01 تاريخ المراجعة: 2020/07/05 تاريخ القبول: 2020/07/14

الملخص باللغة العربية: البحث يستهدف التعريف بالمسار الديني والعلمي والسياسي للشيخ والعالم والمناضل المغربي؛ محمد بن العربي العلوي، الذي يعتبر أب الإصلاح الديني في المغرب الأقصى، والرجل الذي قاد حملة التصدي للانحراف والزيغ الذي أصاب الحياة الدينية والاجتماعية المغربية، سيرا على خطى رواد الإصلاح الديني في العالم الإسلامي الشيخ محمد عبده والشيخ جمال الدين الأفغاني والشيخ عبد الحميد بن باديس.

والشيخ محمد بن العربي العلوي هو أيضا أستاذ الجيل الوطني المغربي الأول، حيث أحسن الربط بين الدعوة إلى الإصلاح الديني وبين مواجهة المحتل، وأبرز العلاقة بين التخلف الاجتماعي والحضاري الذي يرزح تحته المغاربة نتيجة أعمال الطرق الصوفية المنحرفة، وبين وقوعهم فريسة للاحتلال والتبعية، وقد تخرج على يديه أبرز أعلام الوطنية ورواد العمل السياسي المغربي مثل علال الفاسي ومحمد بن الحسن الوزاني والمختار السوسي، الذين سيؤسسون نواة العمل الوطني.

ولم يتوقف دور الشيخ بن العربي العلوي عند هذا الحد، بل تعداه إلى المساهمة في مرحلة ما بعد الاستقلال بمواقفه الداعمة للحق والعدل والحرية، والمناوئة للانحراف والفساد والاستبداد والمعارضة للسلطة الرسمية، فكان له حضور في ذلك التدافع السياسي الذي شهدته البلاد في السنوات الأولى للاستقلال، وسجل له التاريخ انحيازه للطرف الذي لمس فيه الإخلاص للوطن والممارسة السياسية الشريفة، ولو لم يتوافق مع خلفيته الفكرية والدينية.

وهي مواقف جلبت على الشيخ طيلة حياته، التضييق والإبعاد والقمع، فكان نصيبه في عهد الاحتلال السجن والنفي، وبعد الاستقلال التهميش والإقصاء، بعد رفضه عن طيب خاطر منصب الوزير ومزاياه، وتفضيله الانتصار للمبادئ والحق.

الكلمات المفتاحية: بن العربي؛ العلوي؛ الإصلاح الديني؛ الحركة الوطنية؛ القرويين؛ المغرب؛ السلفية؛ الطرقية؛ الحماية؛ محمد بن يوسف.

ABSTRACT: The research aims to identify the religious, scientific and political path of the Moroccan Sheikh, scientist and militant, mohamed bin al-arabi al-alawi, Sheikh al-Islam al-alawi considered truly the father of Moroccan religious reform, He is the founder of Salafist reform in Morocco, In the footsteps of the pioneers of religious reform In the Islamic world; Sheikh Mohammed Abdo and Sheikh Jamal al-Dine al-afghani, and Sheikh Abdul Hamid bin Badis.

El-Sheikh Which linked the reform work and the national struggle, He highlighted the relationship between the social, cultural underdevelopment that Moroccans suffer as a result of acts of deviant Sufi methods, and their fall under occupation and dependency, is the teacher of the first national generation that will confront the occupation, such as Allal El Fassi and El Hassan El Wazzani.

The role of the Al-Sheikh Alawi did not stop there, but he had a contribution in the post-independence period, in supporting the right, justice, freedom, combating delinquency, corruption, tyranny and opposition to official power, He had a presence in the political scramble witnessed in the country in the early years of independence, History has recorded his bias to the party in which he felt the devotion to the homeland and honorable political practice, even if it does not conform to his intellectual and religious background.

These attitudes brought to Sheikh throughout his life, narrowing, deportation and repression, was his share in the era of occupation the imprisonment and exile, and received after independence marginalization and exclusion, after willingly rejecting the position of the minister and its advantages, and his preference for victory of principles and right.

Keywords: bin al-arabi al-alawi ; Morocco ; Salafist reform ; national struggle ; Allal El Fassi; pioneer; independence; al-afghani; Sufi methods; independence; politics.

مقدمة: يمكن أن ننطلق في الحديث عن العلامة محمد بن العربي العلوي بكلمات لأحد الوطنيين المغاربة، جاء فيها: "إذا كانت مصر تفتخر بمصلحها الشيخ محمد عبده والجزائر بشيخها عبد الحميد بن باديس، فإن المغرب يمكنه أن يفتخر بمصلحه الشيخ محمد بن العربي العلوي".

إن الشيخ العلوي علامة فارقة في تاريخ الإصلاح الديني المغربي، كما في تاريخ النضال الوطني ضد الاستعمار الفرنسي، وأكثر من ذلك في سنوات المخاض السياسي من عمر المغرب المستقل، وقد تميز هذا العالم المناضل بمواقفه الدينية والسياسية عن سائر المنظومة المغربية، المعروفة بخطها وتوجهها عبر تاريخ المغرب، كما أنه قد خط مسارا نضاليا على الصعيد السياسي جعل منه فعليا أب الوطنية المغربية الأول، كما جعل منه مناضلا سياسيا ومعارضا صرفا في عهد ما بعد الاستقلال.

وإن المتابع لمسيرة الرجل على الصعيد الديني والعلمي والسياسي، يقف على حياة زاخرة بصنوف المواقف العظيمة والمؤثرة، ويطلع على حياة رجل بالغ الأهمية في تاريخ المغرب الأقصى المعاصر، بمساهماته السياسية والوطنية والعلمية، ويصل لنتيجة وجوب تعريف الأجيال اللاحقة بتاريخه ومآثره، فمن هو محمد بن العربي العلوي ؟ وما موقعه ودوره في التاريخ المغربي المعاصر ؟ وما هي إسهاماته ؟

وللإجابة على هذه الأسئلة نستقرئ عبر هذا البحث، مجموعة وثائق وشهادات لمن عاصروه وعرفوه، ولمن كتبوا عنه من المؤرخين والباحثين، ونجمع مختلف تلك الكتابات التي تناولت جوانب متفرقة من حياته، لنبني مسارا متكاملا لشخصيته، فنسلط الضوء على مسيرته العلمية والدينية وعلى رحلته النضالية، مبرزين بعض تفاصيل حياته الخاصة، معتمدين في البحث على المنهج التاريخي الإسترادادي، الذي يقوم على جمع المعلومات من مصادرها ومقارنتها وفحصها ونقدها وإعادة تركيبها وإخراجها، مستخدمين الأسلوب السردي الوصفي مع قليل من التحليل في عملية البناء التاريخي.

1- ميلاده ونشأته وتكوينه: هو كما عرفه ابن سودة صاحب سل النصال: "محمد بن العربي العلوي المدغري الحسني، وزير العدلية السابق، الشيخ الإمام الحجة الهمام، العلامة السلفي المطلع المشارك، النقّاد المدرس، النفّاعة الوطني، المخلص المكافح بكل ماله وقوته، بأفكاره وآرائه الصائبة عن الإسلام وعن وطنه بإخلاص وحسن نيته"[(1)].

ينحدر الشيخ محمد بن العربي العلوي من العائلة العلوية التي تحكم المغرب منذ سنة 1666، وقد ولد سنة 1880 بقرية المداغرة الصحراوية، التي تتبع مدينة قصر السوق من إقليم تافيلالت، والتي أضحت اليوم عمالة مستقلة تدعى الرشيدية، جنوب المغرب[(2)].

نشأ في عائلة دينية يحترف الكثير من أفرادها مهنة القضاء بمنطقة قصر السوق، ورغم مهنة العائلة وارتباطها السياسي والعرقي بسلاطين المغرب، فقد تميزت حياتها بالبساطة والتقشف، نظرا لطبيعة المنطقة الصحراوية الجافة ذات الموارد الشحيحة،

ولطبيعة العائلة ذاتها المرتبطة بالدين والعلم، وقد التحق محمد صغيرا على عادة كل أطفال زمانه في العائلات الدينية العريقة بالكتّاب، فحفظ القرآن الكريم والكثير من الأحاديث النبوية والمتون وكتب مصادر الدين الإسلامي[3].

أولع محمد منذ شبابه الباكر، وهو ما يزال تلميذا بالكتّاب، بالفروسية والرماية وكل الألعاب الرياضية التي تقوي الجسد، كما أنه كان محبا للمغامرة، الأمر الذي كان مبعث انزعاج في قلب والده وجعله يتخوف على مستقبله العلمي، لكن انتقاله إلى مدينة فاس ليخلف شقيقه في منصب القاضي، في مستهل القرن العشرين، بدد مخاوفه وحقق أماله، فألحق ابنه محمد بجامع القرويين ولازمه تسع سنوات هناك، حتى رسخت قدماه في طلب العلم، وبفاس العريقة التي كانت في ذلك العهد العاصمة السياسية للمغرب، انخرط محمد في الحياة العلمية وفي مجتمع الفقهاء الذي يسكن حواري المدينة القديمة الضيقة، ويعيش بين جدران المساجد والمدارس ذات السقوف الأندلسية الخضراء[5].

تتلمذ محمد بالقرويين على يد جملة من المشايخ منهم: الشيخ أمحمد بن الشيخ قاسم القادري، والشيخ أحمد بن الخياط الزكاوي الحسني، والشيخ أمحمد بن محمد قنون، والشيخ عبد السلام الهواري، والشيخ خليل الخالدي والشيخ أبو شعيب الدكالي، الذي سيكون له كبير الأثر في توجيه وبناء شخصيته[6].

كان العلوي طالبا مجتهدا في قاعات وأروقة القرويين، أتم حفظ متن خليل وغيره من متون النوازل وأمهات كتب الفقه المالكي، وألمّ بالنحو وكان يستحضر الكثير من شواهده، واهتم بالأدب وحفظ كثيرا من نصوص القدماء وأنشد الشعر وكان يكرر أبيات ابن دريد، ومع هذا كان أصوليا ومنطقيا وفقيها معتبرا[7].

كان وهو مكبّا على حلق العلم بالقرويين يتلقف أي كتاب أو مجلة أو ورقة، فقد كان مولعا بالمطالعة والتحصيل، وكان مهتما بكل ما يفد من الشرق من إنتاج أدبي وعلمي، وكان حريصا على قراءة الجرائد والمجلّات التي تصدر من زعماء الإصلاح والوطنية في العالم العربي والإسلامي، فقرأ لمحمد عبده ولجمال الدين الأفغاني ولشكيب أرسلان ولعبد الرحمن الكواكبي، فتطورت أفكاره وتوسعت معارفه[8].

ترك الدراسة سنة 1908 بسبب الأحداث السياسية التي ألمت بالمغرب وغادر مدينة فاس لبعض الوقت، ولما عاد إليها من جديد توجه نحو العمل، فاشتغل موظفا بأحباس فاس، واقترن بزوجته الوحيدة وأم أبنائه جميعا، وفي سنة 1914 عين قاضيا بفاس

الجديد، وظل يشغل هذا المنصب حتى أسندت إليه رئاسة مجلس الاستئناف الشرعي بالرباط في أوائل عهد السلطان محمد بن يوسف[9].

وطيلة المدة التي قضاها العلوي ممتهنا للقضاء بفاس من سنة 1912 وحتى سنة 1930، لم ينقطع عن التدريس بجامع القرويين وبالثانوية الإدريسية العصرية وبالمدرسة الناصرية بفاس للوطني أحمد غازي، وهي أول مدرسة حرة أنشأت بالمغرب، وكان للشيخ ابن العربي مساهمة كبيرة والدور الرئيسي في إنشائها[10].

وأثناء رئاسته لمجلس الاستئناف الشرعي بمدينة الرباط، واصل مزاولته للتدريس وتقديم حلق العلم والتبشير بأفكاره وفلسفته في مساجد الرباط وسلا وفي مجالسه الخاصة، وفي كل المناسبات الخاصة والعامة التي يحل بها، وحتى داخل القصر الملكي خلال الدروس الرمضانية التي كانت تقدم بمناسبة الشهر الفضيل[11].

وحقّق بن العربي نجاحا كبيرا كأستاذ، فكانت محاضراته تستقطب جمهورا غفيرا، وبلغت شهرته الأفاق وورد عليه الطلاب من مختلف المدن، وتخرج على يديه المئات، ومنهم من تأثر به وانتهج أسلوبه في مزج العلم بالنضال السياسي، كان أبرزهم علال الفاسي ومحمد بن الحسن الوزان والفقيه الوطني المختار السوسي[12].

2- دور محمد بن العربي الإصلاحي: كانت مدينة فاس التي احتضنت الشاب محمد بن العربي القادم من الصحراء طالبا للعلم، تغرق في جو ديني تقليدي تسوده الشعوذة والدجل وهيمنة ثقافة الزوايا والطرق الصوفية، في مدينة لا يكثر فيها شيء مثل الأضرحة التاريخية، كضريح مولاي إدريس وضريح أحمد التجاني[13]، وحيث لا يشتغل الناس إلا بالتجارة والدين[14].

انغمس الطالب الشاب في تلك التقاليد فاعتنق الطريقة التجانية[15]، التي تحظى بمكانة خاصة في شمال إفريقية، للدور الذي لعبه مؤسسها في تبليغ الإسلام في إفريقيا السوداء، تماشيا مع السياق العام للمجتمع المغربي والعلمي في تلك الفترة، حيث لا يمكن لأي مشتغل بالدين والعلم أن يفلت من تأثير واحتواء الزوايا[16].

كان محمد العلوي يلتزم حضور حلق الأوراد والمدائح التي تنظم كل يوم جمعة في قلب الزاوية التجانية، رفقة علية القوم من أهل فاس، كطقس يؤكد على الانتماء للطريقة وبغية تحصيل الأجر والتقرب من الله بتلك الأذكار الجماعية، التي تنتهي دائما بتناول وجبات الكسكس على الغداء أو العشاء، وقد تكون الطريقة التجانية أقل انحرافا من الطرق التي كانت تنتشر بين العوام مثل الطريقة العيساوية المنسوبة لأمحمد بن عيسى والطريقة

الحمدوشية أو حمداوة المنسوبة لعلي بن حمدوش، الذين كانوا يبالغون في الأفعال المنحرفة ويغرقون في الرقص والدجل والجهل[17].

وكان لابد أن يكون لتلك المجلّات والجرائد المشرقية، مثل مجلة المنار لمحمد رشيد رضا، وجريدة المؤيد المصرية التي أسسها مصطفى كامل ورأس تحريرها الشيخ علي يوسف[18]، تأثيرا في تطور أفكار وتوجهات العلوي، وإذا أضيف إلى ذلك نفور شخصيته الثائرة من التبعية ورفضه للظلم وللاستعمار، فإنه كان لابد أن يخلع ولائه للطرقية ويتمرد على التقليد ويثور على تلك الطقوس، بعد ما لمسه من استسلام وخضوع بل ترحيب بالاستعمار من مشايخ ومقدمي الطرق والزوايا[19].

ويؤكد الكثير ممن ترجموا للشيخ وكتبوا عنه؛ أنّ التأثير البالغ على مساره العلمي والديني وعلى توجهه وانعتاقه من ربقة التصوف والتقليد، قد تسبب فيه الشيخ أبو شعيب الدكّالي[20]، الذي كان جسر السلفية الإصلاحية للمغرب، وأول من صدع برفض تصرفات وبدع الطرقية وانحرافات وزيغ الزوايا، وتدليس مشايخ الدين التقليديين، رفقة الشيخ المغربي خريج الأزهر؛ عبد الله بن إدريس السنوسي[21].

فلما رجع الشيخ أبو شعيب من المشرق حاملا معه الأفكار الإصلاحية ودخل إلى القرويين، وشرع يبشر بالسلفية الداعية لتطهير الدين من كل ما علق به من شوائب، ومواجهة الانحرافات والزيغ وما أحدث في الإسلام عبر الزمن من قبل المتصدرين باسمه، نتيجة الجهل والتخلف ونتيجة الأغراض والأهواء، كان الشيخ ابن العربي فيمن التفوا حوله، فلازمه وتعلّق به وأخذ عنه الكثير من الأفكار والتصورات عن الإسلام الصحيح وعن كيفية مواجهة الفساد القائم والنهوض بالإصلاح الديني[22].

لقد استفاد الشيخ الدكالي من دعم السلطان عبد الحفيظ (1908- 1912)، الذي كان يستشعر ما حل بالمغرب من ضعف سياسي واقتصادي نتيجة الجهل والانحراف الذي طبع الحياة الاجتماعية والدينية، ففتح الباب أمام أفكار الإصلاح المشرقية الوافدة، واحتضن الشيخ أبو شعيب وتتلمذ على يديه ثلاث سنوات بدء من سنة 1908، فاستغل الأخير ذلك الجو ليبدأ هجومه على الفساد الديني المستشري ويطلق سهامه على أهل الزوايا المنحرفين والمشعوذين المدلسين[23].

تأثر العلوي كثيرا بشيخه أبي شعيب وسار على نهجه، ومستفيدا من قوة شخصيته وعلمه ومن شجاعته التي تجعله لا يهاب المواجهة، بدأ من داخل القرويين حربه على زعماء الطرق المنحرفين، وعلى مقدمي الزوايا المستفيدين من الوضع والمساهمين في انتشار الجهل،

وعلى العلماء المزعومين الذين يغذون انحراف العامة وغرقهم في مهاوي الزيغ من أجل استمرار مكاسبهم المادية وامتلاء جيوبهم[24].

وفي ذكرى وفاته الأولى وفي العدد الخاص الذي أصدرته جريدة المحرر[25] اليسارية تكريما له، كتب أحد من أبنوه: "وكما اتجهت إحدى مسارب البيئة المصرية بالشيخ محمد عبده إلى الطريقة الشاذلية زمنا من عمره، كذلك اتجهت إحدى مسارب البيئة المغربية بابن العربي إلى الطريقة التجانية زمنا من عمره، ، وكما أخرجت حركة الشيخ جمال الدين الأفغاني الإصلاحية القوية المتحركة محمد عبده من محيط العزلة والتعبد الفردي والعلم المنعزل في الطريقة الشاذلية، إلى محيط الإصلاح الاجتماعي والعلم المستعمل في المجتمع المصري، كذلك أخرجت دروس الدكالي وابن تيمية ابن العربي من حلقات الذكر حول الإزار المبسوط في الزاوية التجانية إلى صيحات الإصلاح المنذر ومقاومة الخرافة في المساجد والأندية "[26].

جاهر الشيخ العلوي بدعوته الإصلاحية وحمل على كل مظاهر الانحراف الديني، وهاجم زيارة القبور وطلب قضاء الحوائج منها، وأعلن الحرب على أهل الخرافة المحترفين للتكسّب بالدجل[27]، واجتهد يبصّر طلاب العلم في حِلق التدريس، والعوام في المساجد والبيوت والمناسبات، بما يمثله نهج الطرقية وبعض الزوايا من خطر، ليس على تدين الناس بل على حياتهم ووجودهم، فقد تحولت تلك الطوائف الدينية إلى وسيلة في يد العدو المحتل يطوع بها جموع الشعب المغربي، وأضحت أداة في يد أرباب المال والجاه ليستعبدوا بها الضعفاء والسذج، حتى أن هناك زوايا تتلى فيها أوراد الطاعة للمستعمرين خضوعا لحكمة القضاء والقدر، التي فسرها هؤلاء كما يشاء المستعمر ويهوى، لا كما فسرها الأنبياء وورثتهم[28].

ولم يكن إصلاح ابن العربي يكتفي بتقديم الدروس والمواعظ، بل كان يتعداه إلى العمل، فقد أُثر عنه قطعه شجرة السدرة الكبرى التي كانت تقع قبالة باب ضريح الشيخ أبي غالب الكائن بحومة صريرة داخل باب الفتوح بفاس، وقد جعلها الشرفاء الطالبيون مزارا للناس يتكسبون منه، واتخذتها العامة محجّا، يقصدونها لقضاء الحوائج والتمسح وتعليق التمائم والخرق، حتى غدت صنما معبودا، وكان يوم قطعها مشهودا حضرته جموعا كثيرة بين مستحسن ومستنكر، وقد وعد كبير الطالبيين الناس بتعرض الشيخ ابن العربي للشلل، لكنه كان هو من تعرض للشلل[29].

ولم تكن تأخذ الشيخ لومة لائم في الجهر بالحق ومواجهة الباطل، فحكى عنه من حضر مجلسه ذات يوم بفاس سنة 1947، أنّ نقاشا دار بينه وبين الأستاذ المختار بن محمود، أحد علماء تونس حول أسباب تأخر المسلمين، وقد حصره الشيخ العلوي في الطوائف المضللة، فسأله محدثه قائلا: أما ترى أنك بحصرك الداء في تلك الطوائف تغفل بقية الجوانب الأخرى ؟ فأجابه: أما ترى يا أستاذ أنّ التماسك الداء في عدة جوانب يلهيك عن مقاومة أصله وهو الجهل الذي تنشره الطوائف المضللة في الأمم، ورغم اشتداد النقاش بينهما لم يلن الشيخ ولم يحد عن كلامه واعتقاده[30].

وتحدث أحد من عرفوه أنه خاطبه ذات يوم بالدار البيضاء، لما رآه اشتد في الحكم على إحدى الطوائف، قائلا: "إنّ حكمك هذا قد بلغ من القسوة بحيث لا ينهض إذا التمس له دليل من الكتاب وحجة من السنة"، فأجابه: "إنّك لا تعلم ما علمت أنا من معاشرة هؤلاء الأقوام، وإلا فما رأيك فيمن أصبح لهم الاستيلاء على عقول المسلمين وتسخيرهم في أهوائهم وأغراضهم، وسوقهم لمصلحة الاستعمار كالأغنام، بحيث صرح لي بعض أكابر رؤوسهم بنفسه؛ أنه قد بلغ من استيلائه على عقول العامة ما لو شاء أن يطلب منهم عبادته بصفته إله لعبدوه"[31].

وقد جعلت هذه المواقف من العلامة ابن العربي العلوي عدوا لأصحاب الطرق ومقدمي الزوايا ومقيمي الأضرحة، ونصبته عرضة لحقدهم ومكرهم، وجلبت عليه الشتائم والتحريض وفتاوى التكفير، كما يذكر ابن سودة: "فكم نصبوا له من أفخاخ وكم بارزوه بالمكايد حتى أن بعض العلماء أفتوا بكفره وخروجه من ربقة الإسلام"[32].

لكن لم يؤثر شيء من ذلك في عزم الشيخ العلوي لرسوخ عقيدته بأنه على الحق[33]، ولقوته الشخصية والجسمانية، فكان، كما حكى عنه من عرفه عن قرب، من صلابة العود وقوة الشكيمة وشدة العناد غني عن الظهير والمعين على من كان يغشى مجلسه للمحاججة والمكابرة من الطلبة المسخرين والأشياع المضلَّلين[34].

وفوق ذلك كان قربه من سلاطين المغرب معينا له، فقد لقي من السلطان محمد بن يوسف بالغ الاحترام على مواقفه الدينية والوطنية، جعله ينزل عند طلبه بمنع الطريقة العيساوية والحمدوشية من عموم المغرب سنة 1935[35].

ولا يكاد مؤرخ أو كاتب يختلف حول ريّادة الشيخ العلوي للإصلاح الديني في المغرب[36]، كما ذكر صاحب سل النصال: "وإن شئت قلت بلا مداهنة ولا محاباة إنه هو من بذر البذرة الأولى للسلفية في الشعب"[37]، كما لا يختلفون عن دور هذه الحركة

الإصلاحية في تجديد الإسلام وعودة الشباب الدارس والمثقف للارتباط بالدين من جديد، مثل ما يؤكده المناضل الوطني المهدي بن بركة[38]: "وعقب ظهور الحركة السلفية تبدلت نظرتنا إلى الدين وأخذنا نزيل عن أذهاننا طبقة من الخرافات والقشور التي تكونت فوق لب العقيدة الإسلامية المبنية على حرية المناقشة والتفكير، ، ، لقد بدلت نظرتنا إلى الدين وحفظت شبابنا من الإلحاد وجعلتنا نفهم الإسلام كما تجلى في دعوة جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده"[39].

3- نضال الشيخ محمد بن العربي العلوي الوطني: "لا يوجد من مد جسرا بين الدين والوطنية مثل هذا السلفي"، هكذا وصف المؤرخ شارل أوندري جوليان (Charles André Julien)؛ محمد ابن العربي العلوي[40]، وهذا انطلاقا من تاريخ الرجل الوطني المجيد، الذي أهله ليتبوأ مكانة الأب الروحي للحركة الوطنية، وباعث نهضة المغرب الوطنية وأستاذ الجيل الوطني[41].

ولد الإحساس الوطني لدى الشيخ العلوي مع بدايات أزمة المغرب التي زامنت شبابه، ففي سنة 1908 حين احتل الفرنسيون مدينة الدار البيضاء، وهو بعده طالبا في القرويين، عرض كتبه للبيع ليتمكن من تجهيز نفسه للجهاد، ثم وجد من يجهزه ببندقية وحصان، فانطلق قاصدا الالتحاق ببطل ثورة الأطلس موحا أوحمو الزياني[42]، الذي تحرك لنصرة قبائل الشاوية في وجه للاستعمار حين تقاعست السلطة المركزية عن فعل ذلك[43].

وبعد فشل حملة رد العدوان وتمكن الجيوش الفرنسية من بسط نفوذها على المغرب، عاد محمد بن العربي العلوي إلى فاس وبدأ كفاحا على صعيد آخر، ليس من أجل تحرير الأرض ولكن من أجل تحرير العقول من الوهن والتخلف والجهل، وغرس الروح الإسلامية والوطنية فيها، والتي ستكون المقدمة لتحرير البلاد[44].

رابط بمدينة العلم يدرس بمدارسها ومساجدها، يحارب الطوائف الضالة والخرافة والشعوذة والجهل، وتفيض مجالسه بالتنبيه والتحريض الوطني، وتماهت السياسة لديه مع الدين حتى صعب التفريق بينهما، وبات نقد الأوضاع المزرية التي أوصلت البلاد لتكون فريسة للاحتلال واجب يومي ثابت في مجالسه، كما يحكي هو بنفسه: "عندما كنت أدرس بجامعة القرويين بعد عودتي من المنفى طلب مني الجنرال لابارا (LAPARRA)، رئيس ناحية فاس آنذاك أن لا أتعرض للسياسية في دروسي، فأجبته بأن كل من يزعم أنه يدرس الدين الإسلامي ويترك السياسة فهو كذاب، لأن الدين يطالب بالحرية للإنسان والدفاع عن الأمة كما يطالب بالعدل وبالعلم"[45].

يصف الكاتب البريطاني والأستاذ المتخصص في الدراسات الإسلامية روم لاندو (Rom LANDAU) أن الشيخ كان يلقي محاضراته الدينية في جامع القرويين على غير ما عرف في تقليد المغرب العلمي، مفسرا الأماني الوطنية والمعاني السياسية على أنها مرتبطة بالقرآن الكريم والحديث الشريف، حيث كان كل شيء عنده متصل رأسا أو بالواسطة بتعاليم النبي، وكثيرا ما كان يجد نفسه في حرج مع السلطان، لا ينقذه منه إلا ما كان يتمتع به من مقام كبير[46].

لقد أحيت صيحاته بين جدران القرويين جيلا بأكمله، وحشدت حوله جمعا من الشباب الذين شكلوا نواة حقيقية لمشروع وطني، تطور مع الزمن ليصبح حركة وطنية متكاملة تقارع الاستعمار، إذن فالحركة الوطنية المغربية وممارسة العمل السياسي من قبل المغاربة نبع أساسا من صلب الحركة السلفية الإصلاحية، وساهم فيه مساهمة كبيرة العلامة محمد بن العربي العلوي[47]، ويؤكد هذا الكلام المناضل الوطني المهدي بن بركة في محاضرته المشهورة "نحو مجتمع جديد"، التي ألقاها سنة 1958: "وأول رد فعل وقع في ميدان التحرر هو قيام الحركة الوطنية السلفية"[48].

لقد مثلت ثورة الريف محطة مهمة في انبعاث الفكر الوطني، وأمدت الحركة الإصلاحية الوليدة بقيادة بن العربي بشحنة معنوية عظيمة، لقد كانت الحدث الأبرز الذي جند النخبة المغربية خلف القضية الوطنية، ونبّه الجميع إلى القدرة الذاتية والمخزون العظيم الذي تملكه الأمة لمواجهة الاحتلال وعوامل الضعف[49].

كانت حلقات ودروس الشيخ العلوي كلها مسخرة لنصرة ثورة الريف، وبث روح المقاومة في النفوس، فقد كان يردد في الحاضرين: "إن موقف المشاهدة والفرجة كفر، فأحرى دور الانهزاميين والعملاء وكل من يساند الإدارة الاستعمارية"[50]، لقد اجتهد في فضح التواطؤ المغربي والفرنسي ضد الأمير المجاهد الخطابي، وشنّ حملة شعواء ضد شيوخ التجانية الذين كانوا يتسلمون الهدايا من السلطات الفرنسية والإسبانية مقابل بث الشكوك وسط القبائل المساندة للثورة، بل حرّض أهل فاس على مساندة زحف جيش الأمير الخطابي على المدينة، في عنفوان الثورة الريفية[51].

ويوثق هذا الدور وهذا الجهد الكاتب الفرنسي في جريدة لوموند جون لاكوتير (Jean LACOUTURE)، ففي مقال تأبين للشيخ كتب: "إنه وجه بطولي للمغرب الحديث يختفي، هذا الوجه يمكن مقارنة دوره في بعث الإحساس الوطني بالدور الذي لعبه آنذاك عبد الكريم الخطابي، فبينما كان الزعيم الريفي يوقظ جماهير الجبال ويبعث فيهم الشوق إلى

الجهاد، كان هذا العالم الإسلامي يبعث في سكان المدن الشوق إلى الدراسة والشعور بالانتماء إلى الوطن[52].

وبعد نهاية ثورة الريف واقتياد زعيمها الأمير الخطابي إلى منفاه بجزيرة (لارينيون)، كان دور العلامة ابن العربي العلوي في غاية الأهمية في تثبيت النفوس وبث روح مواجهة الهزيمة ونبذ الاستسلام بعد الصدمة التي تفشت، والتي ماثلت صدمة 30 مارس 1912، وكان الشيخ يردد على الجموع التي ترتاد حلقاته في القرويين: "أيها الناس إنّ الرضا بالعبودية والظلم كفر وإلحاد"[53].

وبجانب دروس الشيخ ومواعظه وتحريضه الخِطابي، تواصلت مواقفه الملموسة، فسنة 1922 قام بمقاطعة حفل رسمي أقامته باشاوية فاس على شرف المارشال ليوطي (LYAUTEY)[54]، قائد الجيش الفرنسي بالمغرب، وكان ابن العربي آنذاك أستاذا بالقرويين، فتعرض للاعتقال في سجن الباشا ابن البغدادي، نتيجة ذلك الموقف ونتيجة عدائه الصريح لفرنسا وتحريضه ضد المتعاونين معها[55].

وخلال الحدث الأبرز الذي مثل ميلاد العمل الوطني؛ الظهير البربري، ظهر جليا موقف الشيخ في الدفاع عن وحدة الشعب المغربي ورفض مشاريع الاحتلال، فقد كان على رأس الطليعة التي خرجت للتنديد بخطر التقسيم وبالظهير، ولم يقتصر نضاله في هذه القضية على إفهام الناس بأخطار هذا القرار على وحدة المغرب، بل بذل جهوده لتنبيه المخزن وجهاز السلطان للأخطار الجسيمة التي ينطوي عليها الظهير[56].

يؤكد هذا الكاتب جون لاكوتير، ففي جو الارتباك الذي أحدثه الظهير البربري، ظهر الشيخ الفقيه محمد بن العربي العلوي، الذي يقدم دروسا بجامعة القرويين بفاس تهدف إلى إعادة بعث الروح الإسلامية والأمة المغربية، كمحرك لضمير الأمة وحام للدين[57].

لقد كان طلابه وتلاميذه على رأس الحراك الوطني الذي شكل الكتلة الوطنية سنة 1934، والذي قدم في نوفمبر 1934 مطالب الشعب المغربي من أجل الإصلاح إلى الإقامة العامة، فلا يختلف المؤرخون عن كونه الأستاذ والمفكر الذي استوحى منه مؤسسو لجنة العمل الوطني مشروعهم سنة 1934[58].

اقترب الشيخ بدء من هذا الوقت من السلطان محمد بن يوسف، فأسند إليه مجلس الاستئناف الشرعي، فانتقل إلى الرباط، وفُتحت أمامه أبواب القصر الملكي، ليلعب دورا كبيرا في توجيه السلطان الشاب والتأثير في مواقفه وحثه على النزوع نحو الوطنيين، وتحريضه على الصمود في أي خلاف مع إدارة الحماية[59]، وليتم تعيينه بعد فترة وزيرا

للعدل في حكومة المخزن التي تتكفل بشؤون السكان المحليين، بحكم أن السلطان كان له الحق تحت نظام الحماية في اختيار مساعديه ووزرائه[60].

وأثناء تقديم بيان الاستقلال في ذروة النشاط الوطني في يناير 1944 كلّف السلطان محمد بن يوسف المجلس الوزاري بالاتصال بالمقيم ومناقشة الموضوع معه، فأحجم جميع الوزراء عن الكلام رهبة في حضرة المقيم بيو (PUAUX)، وتصدى الشيخ ابن العربي وحده للنقاش، وعندما احتدم الكلام معه وتعنت المسؤول الفرنسي خاطبه ابن العربي قائلا: إننا لسنا خرافا، وحتى لو كنا كذلك فإن الخراف نفسها لا تستسلم لمصيرها على يد الجزار إلا بعد أن تقاوم وتقاوم[61].

وبعد هذا اللقاء مباشرة قدّم الشيخ استقالته من الوزارة احتجاجا على تخاذل الهيئة الوزارية المخزنية بقيادة المقري[62] في مواجهة المقيم، وعلى موقف الإقامة العامة، وتضامنا مع الوطنيين، فجاء رد الحكومة الفرنسية بنفيه إلى قرية (القصابي) بالأطلس المتوسط ثم إلى مسقط رأسه ب(مدغرة) بتافيلالت[63].

امتد نفي الشيخ العلوي من فبراير 1944 وحتى ديسمبر 1945[64]، ولم يكف خلال هذه الفترة، عن النشاط وحث الناس على مواجهة المحتل، ويذكر أنه عندما كان لا يجد وسيلة لجمع الناس ليتحدث فيهم، يدعو لإقامة صلاة الاستسقاء[65].

وبعد الانفراج الذي حدث في عهد المقيم العام إيريك لابون (LABONNE Eirik)، وإطلاق سراح المعتقلين والسماح بعودة المنفيين، عاد الشيخ إلى الرباط في نهاية سنة 1945، لكن ظروفه المادية لم تسعفه ليبقى بالمدينة، فباع بيته بها وعاد إلى فاس سنة 1951، وإلى وظيفته السابقة مدرسا بالقرويين[66].

عاد الشيخ العلوي من جديد إلى دروسه التي تنضح بالوطنية والمقاومة، فبدأ الصراع بينه وبين حاكم فاس؛ الجنرال لابارا، وأتباعه من الأعيان التقليديين وموظفي المخزن، وطلب منه مرارا أن يكف عن بث الحقد على الفرنسيين، ولما رفض واعتبر ما يقوم به من صميم واجبه الديني تم نفيه من جديد إلى (إيموزار)، قريبا من فاس، ولأن ذلك لم يجدي، حيث صار مقصدا للجموع ومحجّا للزائرين، أعيد من جديد إلى فاس وفرضت عليه الإقامة الجبرية ووضعت على باب بيته حراسة بوليسية[67].

استمر ذلك الوضع حتى انفجرت الأحداث التي أدت إلى خلع السلطان محمد بن يوسف في أوت 1953، فبعث بن العربي إلى السلطان ينصحه بالثبات والصمود قائلا: إذا

غلبك المقيم في هذه، فإن ذلك سيفتح لهم باب التجرؤ عليك، وقد يتطور الأمر إلى أن يبعثوا إليكم أوامرهم في يوم من الأيام مع مقدم الحومة[68].

ولما عزل السلطان بن يوسف ونصب العميل ابن عرفة، كان لابد أن تتم عملية البيعة له أولا من قبل العلماء، لأن ذلك يعطيه الشرعية الدينية والقبول الشعبي، وكان للشيخ موقفا تاريخيا خلال تلك الأحداث وثّقه المؤرخ روم لاندو، فقد كان رجال البوليس يقرعون بيوت العلماء واحدا واحدا، يدعونهم للذهاب إلى القصر الملكي لتوقيع البيعة، وكان أحد هؤلاء العلماء، كما وصفه، رجلا متقدما في السن يبدو عليه مظهر الأنبياء وله عيون المجاهدين، وكان وجهه الواسع ولمعان عينيه الساحر وما يبدو عليه من الحكمة المشوبة بالريبة، يضفي عليه شيئا من هيئة سقراط، هذا العالم هو الشيخ محمد بن العربي العلوي، وكان أشهر علماء المغرب، وبعد أن ألقى رجل البوليس إليه بالأوامر، قال: لن أكون هناك لأن عقوبة الإعدام يجب أن تنزل بالإمام الجديد وفقا للشريعة الإسلامية، وقبل أن يبزغ الفجر كان البوليس قد أحاط ببيت الشيخ وألقى عليه القبض[69].

وليس غريبا منه هذا التصرف وهو الذي وصفه المؤرخ شارل أوندري جوليان؛ بأنه الرجل الذي يعيش وفق الضوابط القصوى للإسلام ويرفض أن يساوم حتى تحت التهديد[70].

ولبثت إدارة الإقامة خلف العلّامة العلوي تساومه على التنازل، وكل مرة يبعث الجنرال لابارا بمبعوث يفاوضه، فمرة أرسل ترجمانه الخاص ليقنعه بالعدول عن موقفه والتوقيع على البيعة، فقال له ابن العربي: إنكم بصريح العبارة تساومونني على الخيانة وأنا في هذا السن المتقدمة، ولو كان عليا أن أخون بلادي لفعلت ذلك وأنا شاب استقبل الحياة، فكيف أفعله الآن وأنا شيخ استدبر الحياة، وفي أخرى بعث إليه بصديقه القبطان روزي (ROZY)، يطلب منه أن يجرم الأنشطة المسلحة التي أخذت، بعد نفي السلطان محمد بن يوسف، تستهدف الفرنسيين والمتعاونين معهم، فرد عليه الشيخ: لقد جربنا نحن تجربتنا وفشلنا، وليس من حقنا نحن الفاشلون أن نحشر أنفسنا في تجربة أناس آخرين، إن العنف يولد العنف وإن ما قمتم به أنتم من أعمال كان يستلزم بالضرورة رد فعل من هذا النوع[71].

وفي شهر ديسمبر 1953، وبعد ثلاثة أيام من كلامه مع مبعوث الجنرال لابارا، اقتحمت قوات الشرطة مسكن الشيخ واقتادته منفيا إلى (تزنيت) في الجنوب، بعيدا بأزيد من ألف كلم عن فاس، حيث سيمكث إلى غاية 05 ديسمبر 1954 حبيسا في إقامة جبرية قاسية، في

مواجهة الجوع والبرد والعزلة، قبل أن يفرج عنه في سياق الانفراج الذي أدى إلى عودة السلطان المنفي واستقلال المغرب[72].

وقد شهد على معانات الشيخ في منفاه، الأب دوني مارتان (Donnie MARTIN) الراهب الكاثوليكي، الذي كان يرأس ديرا بتموليلين، فقال: عرفته عند عودته من منفاه بالجنوب المغربي، لقد ضعفت صحته وكان موضوع تحت حراسة جبرية بفاس، لقد تحادثنا عن المشكل الديني، فكان يذكرني بعبارات السمو والاعتلاء[73].

وكان آخر موقف مشهود للعلامة العلوي في مواجهة الاحتلال، هو اعتراضه على تشكيل مجلس حفظة العرش، وعلى مقررات اتفاق (إيكس ليبان)[74]، الذي وقع بين فرنسا والوطنيين المغاربة، من أجل عودة السلطان بن يوسف، فقد وجّه كلاما صارما للفاطمي بن سليمان[75]، الذي كلفته إدارة الحماية بتشكيل حكومة انتقالية في انتظار حل مشكل وضع السلطان، وقد اتصل بالشيخ العلوي ليعرف رأيه، الذي يتوقف عليه رأي أغلبية الشعب المغربي، فخاطبه الشيخ قائلا: "إنه لا قيمة للمجلس الآن، بل ولا للحكومة التي كلفك بتأليفها في نظرنا، لأن كل ذلك لا أساس له، لا من وجهة الشرع ولا من جهة الوضع، لأنه من غير إرادة الشعب، وإرادة الشعب التي عبر عنها هي إعادة صاحب الحق الشرعي في العرش المغربي، جلالة السلطان محمد بن يوسف، الذي يجب أن يرجع مكرما إلى شعبه وبأمره تؤلف الحكومة"، وبناء على هذا الموقف من الشيخ العلوي، الذي أعتبر موقفا شرعيا وفتوى دينية، سار جيش التحرير الذي تأسس في هذا الوقت، ورفض وضع السلاح حتى عودة السلطان محمد بن يوسف إلى المغرب ومغادرة الجيش الفرنسي المحتل وإدارة الحماية[76].

5- **مواقف الشيخ بن العربي العلوي في عهد الاستقلال:** بعد عودة السلطان بن يوسف إلى المغرب يوم 16 نوفمبر 1955، وهزيمة المشروع الفرنسي الرامي لاستبداله، كان الشيخ العلوي في مقدمة من استقبلهم السلطان العائد الظافر اعترافا بجميل مواقفه الوطنية، ثم تمت دعوته من جديد يوم 23 نوفمبر لاستشارته فيما يخص تشكيل أول حكومة مغربية في عهد الاستقلال، وحتى قبل استقبال المكلف بتشكيل الحكومة نفسه[77]، السيد مبارك البكاي[78].

وخلال لقائه بالسلطان لم يخالف الشيخ عاداته، فقدم له نصائحه بما يراه رأيا صوابا ويعتقد فيه مصلحة البلاد والشعب، حول الحكومة القادمة، وعندما خرج من اللقاء

تحدث إلى الصحفيين قائلا: كان موضوع الحديث عن العلاقة التي يجب، كما يرها الإسلام، أن تكون بين الدولة ورعياها[79].

وبعد مرور سنة وأثناء تشكيل الحكومة الثانية، استدعاه الملك محمد الخامس ليعينه في منصب شرفي تكريما له على جهوده الكبيرة التي بذلها منذ شبابه في خدمة الإسلام والوطن، فأسند له منصب وزير في مجلس التاج، رفقة كل من تلميذه الفقيه المختار السوسي والقائد الأمازيغي الحسن اليوسي[80]، وكان هذا المنصب يبقيه قريبا من الملك ليستشيره في القضايا السياسية والدينية، وفي نفس الوقت يحفظ له بعض الامتيازات التي جاءت كمكافئة له على مساره الوطني الحافل[81].

وفي هذا المنصب لم يتأخر الشيخ عن المشاركة في الأحداث السياسية التي شهدتها المغرب، ولم تمنعه الصفة الشرفية من أداء دوره الديني والوطني، فأثناء تمرد عامل إقليم تافيلالت عدي وبيهي[82]، في يناير 1957، تواصل معه لإقناعه وأتباعه بوضع السلاح، وبعد لقائه به وحواره معه، استشف الشيخ حقيقة تعامل القائد عدي مع الفرنسيين وتآمره ضد سلطات بلاده[83]، فلم يمتنع خلال المحاكمة التي جرت بعد فترة، عن الشهادة بما وقف عليه من إصرار الرجل على التمرد والتحريض على حمل السلاح بسبب رفضه لبعض الحكام والقواد الذين عينتهم وزارة العدل والداخلية، بل لم يمتنع الشيخ أن يشهد ضد زميله في مجلس التاج الوزير الحسن اليوسي، والذي أثبتت المحاكمة علاقته بالقائد المتمرد وتحريضه له[84].

وكان الشيخ في هذه الفترة يستشار خلال الأزمات السياسية وتشكيل الحكومات، فأثناء الأزمة التي نجمت عن الإطاحة بحكومة البكاي سنة 1958 من قبل حزب الاستقلال، كان أحد من استشارهم الملك وصرح عقب لقائه به؛ أنه يتشرف برؤية الملك والتشاور معه فيما يقتضيه الدين من نصيحة لله ورسوله ولإمام الإسلام وعامته، وأكد أن إمام المسلمين المقصود هو محمد بن يوسف"[85].

وبعد أشهر وعندما أطيح بحكومة الاستقلالي أحمد بلافريج[86]، لعب الشيخ ابن العربي دورا مهما في تكليف محمد الخامس لعبد الله إبراهيم[87] بتشكيل الحكومة الجديدة، وهو من شباب حزب الاستقلال اليساريين، فقد توسط الشيخ بين القصر وشباب الحزب اليساري، بسبب المكانة الكبيرة والإجلال الذي كان يحظى بهما عند هؤلاء الشباب[88]، وبطبيعة الحال كان الشيخ في جملة من استشارهم وتواصل معهم عبد الله إبراهيم خلال مشاورات تشكيل فريقه الوزاري[89].

وبطبيعة الشيخ النازعة إلى الوقوف مع الحق ومواجهة الاعوجاج والانحراف، فلم يطل به الحال ليجد نفسه مرة أخرى في معارضة نظام الملك محمد الخامس، عندما أدرك أن دولة الاستقلال تغرق في الفساد وسوء التسيير، والتقصير في حق المواطنين في التعليم والصحة، ورأى تصدر من كانوا بالأمس في صف المحتل، ولمس غياب العدالة الاجتماعية، فلم يتوانى في تبليغ كل انشغالاته للملك والمسؤولين[90].

ليصل به الأمر إلى تقديم استقالته وتركه لكرسي الوزير وامتيازاته، في تصرف مماثل لذلك الذي اتخذه إبان عهد الاحتلال، حين استقال من وزارة المخزن، فلم يسجل التاريخ لأي وزير مغربي أن زهد في كرسي الوزارة مرة واحدة وليس مرتين[91].

وجاء ذلك التصرف في أعقاب عملية الاعتقال التي طالت القياديين اليساريين عبد الرحمن اليوسفي[92] والفقيه البصري في شهر ديسمبر 1959، بتهمة الإساءة للملك محمد الخامس، ثم اعتقال عدد من رموز المقاومة في شهر فبراير 1960 بتهمة التحضير لمؤامرة تستهدف ولي العهد الأمير الحسن[93]، فلم يطق الشيخ العلوي البقاء صامتا وعبر عن استيائه مما جرى في حق رموز التحرير الوطني، وغادر مدينة الرباط نحو بيته المتواضع بفاس، تاركا منصب الوزارة وفيلا الوزير والسيارة الفخمة، وبعث برسالة لعبد الرحيم بوعبيد[94] وزير الاقتصاد يعلمه بانتهاء مهمته مع الدولة ويطلب منه وقف راتبه وامتيازاته، وعاد لحياة التقشف والعوز من جديد[95].

وبعد عشرة أيام من التحاقه بفاس، توجهت إلى الشيخ مجموعة من مناضلي حزب الاتحاد الوطني للقوات الشعبية، فقال لهم: "إن المؤامرة ضد المقاومين ليست إلا مكيدة استعمارية للإيقاع برجال المغرب الذين ينتظر منهم تحقيق الجلاء كما حققوا الاستقلال"، ودعا الشيخ، الشعب المغربي إلى الثبات والصبر والانتصار، وإحباط المناورات التي تحاك ضد الأحرار لأن ذلك من عقيدة الإسلام والمسلمين[96].

وبعد الإفراج عن المقاومين المعتقلين يوم 04 جوان 1960 بعفو من الملك، بعد عدم ثبوت شيء ضدهم، انتقلوا مباشرة من السجن إلى بيت الشيخ بفاس حيث استقبلهم قائلا: "قبل كل شيء أهنئكم يا أبنائي بدخولكم السجن قبل أن أهنئكم بخروجكم منه، أهنئكم جميعا على هذا الشرف الذي أصبحتم تتمتعون به"[97].

اجتمع الشيخ بالمقاومين المحررين، وتبادل النقاش معهم عن أحوال البلاد، وحثهم على التحلي باليقظة لمواجهة مكائد الاستعمار، الذي يواصل تنفذه بالبلد وتستمر سيطرته على بعض مؤسسات الدولة، وكان يلمح لمؤسسة الجيش الملكي، وحمد الله كثيرا على إطلاق

سراحهم، الذي وصفه بالنصر المظفر للشعب أجمع، وبعد تناول وجبة الغداء التي كانت مجرد طبق كسكس بسيط، طلب الشيخ من المقاوم الفقيه البصري أن يقترب منه ويحدثه عن حالته الصحية وعن الفرق بين السجن في عهد الاستعمار وعهد الاستقلال، وخاطب ضيوفه؛ لقد كنت أنوي زيارتكم لكنكم سبقتموني إلى هنا وتحملتم مشاق السفر[98].

وقبل ذلك كان الشيخ العلوي مباشرة بعد توصله بخبر الإفراج عن المقاومين قد خرج من عزلته وترك بيته متوجها إلى الرباط لتقديم تهاني عيد الأضحى إلى الملك محمد الخامس، بعد فترة من مقاطعة النشطات الرسمية ومقاطعة السلطات[99].

لم يكن موقف الشيخ العلوي، اتجاه المقاومين بالمستغرب، فالرجل منذ سنوات عديدة قريب من القيادات التقدمية ويحظى بإجلال رموزها، حتى أنه كان الوجه الأبرز في منصة تأسيس حزب "الاتحاد الوطني للقوات الشعبية" يوم 06 سبتمبر 1959، ومن ذلك التاريخ نظر إليه كأحد حلفاء اليسار، بل كأحد وجوه الحركة التقدمية في المغرب، ولم يتوجه هذا التوجه إلا بما لمسه من نزاهة وصدق رجال هذا التيار واهتمامهم بمصلحة البلاد ومن ممارسات شريفة داخل حزبهم[100].

وطيلة السنوات التي أعقبت ظهور حزب الاتحاد الوطني للقوات الشعبية، لم يكن الشيخ يتأخر عن دعم مواقف الحزب والمشاركة في نشاطاته، فعندما اشتدت القبضة الحديدية بين الحزب والحسن الثاني في شهر جوان 1961 وانطلاق حملة الإضرابات الشهيرة، قدم الشيخ إلى مدينة الدار البيضاء وشارك في المجلس الوطني للحزب، الذي انعقد يومي 17 و18 جوان 1961 وخرج بقرارات حاسمة في سياق المواجهة مع النظام، وكان الشيخ هو من افتتح ذلك الاجتماع، بعد أن قدّمه القيادي بوعبيد بكلمة أبرز فيها مواقفه الوطنية ونضاله المستمر، منذ عهد الحماية[101].

وجاء في كلمة الشيخ لأعضاء المجلس الوطني للاتحاد الوطني: "إننا في حاجة اليوم وأكثر من أي وقت مضى إلى التعاون والتكاتف والإتحاد على أساس خدمة الصالح العام، وإننا قد حصلنا على الاستقلال ولكننا لم نحسن استعماله، وإن الحالة التي يوجد عليها المغرب لم يكن يوجد عليها حتى في عهد الحماية"[102].

وخلال أشغال المؤتمر الثاني لحزب الاتحاد الوطني سنة 1962، كان الشيخ مرة أخرى أحد أبرز الحضور، فمنحت له الرئاسة الشرفية، وانتظرت الجموع بشغف كلمته وتجاوبت معه بحرارة، كما حيت القيادات اليسارية مشيخته ونضاله[103]، الأمر الذي أثار حنق زعيم حزب الاستقلال علال الفاسي ودفعه لكتابة مقال يتحامل فيه على الشيخ، ويبحث له عن

مناقص ومثالب تسيء له انتقاما منه على وقوفه مع الحزب الخصم، وأرجع تلك المواقف منه إلى تقدمه في السن[104]، لكن لا أحد كان يلتفت لكلام الفاسي لمعرفة جميع المغاربة الفرق في المواقف والثبات بين الرجلين، بل أدى ذلك لحملة مضادة من مناضلي اليسار تأييدا للشيخ وتضمانا معه[105].

وكان آخر موقف مشهود للشيخ ابن العربي هو تصديه لدستور الحسن الثاني، في نهاية سنة 1962، وهو في عمر الثانية والثمانين، حين وقف في ظهر حزب الاتحاد الوطني للقوات الشعبية المحارب من الجميع، الرافض لذلك الدستور، وليعلن موقفه واضحا: "الحاكم في الشريعة الإسلامية مجرد منفذ وليس له حق التشريع، الحاكم في الإسلام يجب أن توفر فيه شروط الصلاحية، إعطاء الحاكم نفسه حق التشريع مخالف لروح الإسلام"[106]، ثم أفتى بتحريم المشاركة في الاستفتاء على الدستور وإرغام الناس على ذلك، وقال: "كل موافقة تنتزع بالقوة فهي باطلة"[107].

وبعد عمر حافل بالمواقف والنضال والدفاع عن الإسلام والمغرب وعن الحق، أسلم الشيخ الروح لبارئها يوم الخميس 04 جوان 1964، بمنزله بمدينة فاس بعد مرض خفيف، وأوصى أن تمر جنازته من دون رسميات، وأن يدفن وسط البسطاء بقريته الأصلية مدغرة، وقد خيم حزن عميق على مدينة فاس في يوم رحيله وعلى من حضر الجنازة بإقليم تافيلالت جنوبا، وأبنته جموع المحبين، ورَثتْه طويلا صحافة اليسار، بينما تجاهلت وفاته صحافة حزب الاستقلال والنظام الرسمي، وبعد سنة على وفاته خصص حزب الاتحاد الوطني للقوات الشعبية عددا خاصة من صحيفته المحرر، تحدث فيه عن مسيرة حياته، وأرّخ لأبرز مواقفه وشمائله[108].

الخاتمة: مثّل محمد بن العربي العلوي نموذجا متفردا في تاريخ المغرب الأقصى المعاصر، بل في كل تاريخه الطويل، فيندر أن يوجد في تاريخ العالم الإسلامي من جمع بين العلم وبين النضال الوطني والدور السياسي، ولعل قلة من هؤلاء قد عرفوا وبرزوا وخلدهم والتاريخ، وكان حصة المغرب الأقصى منهم هو هذا الطراز الفذ.

إن الشيخ محمد بن العربي العلوي هو مثال العالم المسلم الحق الذي تمثل منهج الإسلام وأخلاق الأنبياء، فقرن العلم بالعمل وخط طريقا في الحياة متميزا بالصدع بالحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتضحية والثبات، ولم يقتصر دوره على الحياة الاجتماعية مثل جل العلماء، بل تعداه إلى الميدان السياسي، فكانت حياته تبعا لذلك مزيجا بين الإصلاح الديني والكفاح الوطني والنضال السياسي.

يعتبر الشيخ العلوي، رمز الإصلاح الديني في المغرب، بمواجهته للزيغ والضلال ودروشات الطرق الدينية المنحرفة، وهو أول من تصدى للنموذج الديني التقليدي الذي كان سائدا في المغرب، انطلاقا من عاصمة العلم فاس، ومن قلعة العلماء جامع القرويين، وهو كذلك أبو الوطنية صدقا، باعتباره أستاذ الجيل الوطني الأول.

والشيخ لم يكن منظرا للعمل الوطني فحسب، بل مكافحا من الطراز الأول، واجه الاحتلال وتصدى لمشاريعه ودفع ثمن المواجهة سجنا ونفيا، ولم تمنعه حظوة وامتيازات الاستقلال لينصرف عن قول الحق ومواجهة الانحراف وترك النضال، بل كان منه في عهد الاستقلال ما لم يكن منه قبله، فزهد في المناصب والمكاسب وآثر أن يدافع عن حق الشعب في الحرية والديمقراطية والعدل، وبقي يصدع بالحق ويأمر بالمعروف وينهي عما يراه منكرا حتى آخر أيامه، ودفعه ذلك ليكون بجانب التقدميين ضد التقليديين، حتى من تلاميذه السابقين، من منتسبي السلفية والتدين والعلم.

الهوامش:

1- عبد السلام ابن سودة، سل النصال للنضال بالأشياخ وأهل الكمال، تحقيق: محمد حجي، ط:1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997، ص: 195.

2- عبد الرحيم الورديغي، المناضل شيخ محمد بن العربي العلوي، الهلال العربية للطباعة والنشر، الرباط، 1996، ص، ص: 9، 10./ جريدة المحرر المغربية، "الرجل في سطور"، عدد: 59، (04 جوان 1965)، ص، ص: 01، 05.

3-الورديغي، مرجع سابق، ص: 10.

4-الورديغي، مرجع سابق، ص: 10./ جريدة المحرر، "الرجل في سطور"، مرجع سابق، ص: 01./روم لاندو، تاريخ المغرب في القرن العشرين، ترجمة وتحقيق: نيقولا زيادة، أنيس فريحة، ط:2، دار الثقافة للطبع والنشر، بيروت، 1980، ص: 402.

5-ابن سودة، مرجع سابق، ص: 196.

6-محمد الحمداوي، "رحم الله ابن العربي"، جريدة المحرر، عدد: 59، (04 جوان 1965)، ص: 04.---7-الورديغي، مرجع سابق، ص: 13.----8-ابن سودة، مرجع سابق، ص: 196./ جريدة المحرر، "الرجل في سطور"، مرجع سابق.

9-جريدة المحرر، "الرجل في سطور"، مرجع سابق./ الورديغي، مرجع سابق، ص: 15.

10جريدة المحرر، "الرجل في سطور"، مرجع سابق.

11-Charles-André JULIEN, le Maroc face aux impérialisme 1415-1956, (S.E), Edition J.A, Paris, 1979, p :156./ الورديغي، مرجع سابق، ص، ص: 16، 26، 37.

12-أحمد بن محمد بن مختار التجاني (1737- 1815)، مؤسس الطريقة التجانية، فقيه مالكي ولد بمدينة عين ماضي بالأغواط، ثم ارتحل إلى تلمسان وفاس ثم إلى الحجاز وتونس، له بعض المؤلفات، وكثير من الأتباع في منطقة السودان المسلم بإفريقيا، بفضل جهوده هناك، ينظر: عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ط: 2، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، 1980، ص: 62.----13-الورديغي، مرجع سابق، ص: 12.----14-ابن سودة، مرجع سابق، ص: 195.

15-الورديغي، ص: 12.---16-ابن سودة، مرجع سابق، ص: 196./ الورديغي، مرجع سابق، ص: 12.

17-علي يوسف، (1863- 1913) أديب وشاعر وصحفي مصري مشهور.----18-الحمداوي، مرجع سابق./ الورديغي، مرجع سابق، ص: 04.

19-أبو شعيب الدكالي (1875- 1937)، فقيه ومحدث ومفسر مغربي، درس بالمغرب ومصر والحجاز، قربه السلطان عبد الحفيظ، ثم عين وزيرا للعدل في عهد السلطان يوسف، بدأ مصلحا وانتهى به الأمر مقربا من نظام الحماية. ينظر: عبد الكريم الفيلالي، التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير، ط: 1، شركة ناس للطباعة، القاهرة، 2006، ج: 09، ص- ص: 118- 142.

20-JULIEN, op-cit, p : 153./ ابن سودة، مرجع سابق، ص: 195.

21- عبد الله بن إدريس السنوسي (1844- 1931)، عالم وحافظ مغربي، من أول من نادوا بالنهج السلفي بالمغرب، قربه السلطان الحسن الأول وابنه عبد العزيز. عبد السلام ابن سودة، إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع، تحقيق: محمد حجي، ط: 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997، ج:2، ص: 458.

22- JULIEN, op-cit, p : 153./ الفيلالي، مرجع سابق، ج: 09 ص: 135.

23-JULIEN, op-cit, p : 153.

24-Ibid./ ابن سودة، **سل النصال**، مرجع سابق، ص: 195.

25-جريدة المحرر، لسان حال حزب الاتحاد الوطني للقوات الشعبية اليساري، صدرت سنة 1965، بعد توقيف جريدة التحرير من قبل النظام.----26-الحمداوي، مرجع سابق.----27-المرجع نفسه./ ابن سودة، **سل النصال**، مرجع سابق، ص: 195.---28-الحمداوي، مرجع سابق.----29-ابن سودة، **سل النصال**، مرجع سابق، ص، ص: 195، 196.

30-الحمداوي، مرجع سابق.----31-المرجع نفسه.----32-ابن سودة، **سل النصال**، مرجع سابق، ص: 195.

33-المرجع نفسه.---34-الحمداوي، مرجع سابق.---35-ابن سودة، **سل النصال**، مرجع سابق، ص: 196.

36-عبد الحميد المرنيسي، **الحركة الوطنية المغربية**، (د ط)، مطبعة الرسالة، الرباط، 1978، ص: 35.

37-ابن سودة، **سل النصال**، مرجع سابق، ص: 196.

38-المهدي بن بركة (1920- 1965)، أحد رموز الحركة الوطنية وحزب الاستقلال، ورأس الحركة التقدمية واليسار بعد الاستقلال في المغرب، وأحد أهم مؤسسي حزب الاتحاد الوطني لقوات الشعبية، اختطف وصفي في باريس يوم 29 أكتوبر 1965، ينظر: عبد اللطيف جبرو، **المهدي بن بركة، الرياضيات مدرسة للوطنية**، ط:2، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1986.

39-المهدي بن بركة، "محاضرة نحو مجتمع جديد"، 31 جويلية 1958، وثيقة منشورة، محمد عابد الجابري، **في غمار السياسة فكرا وممارسة**، ط:1، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، 2009، ج:2، ص: 151.

40-JULIEN, op-cit, p : 156.

41-محمد عابد الجابري، "مثال المناضل الواعي، والمثقف الملتزم، والثائر الهادئ"، جريدة المحرر، عدد: 59، (04 جوان 1956)، ص، ص: 02، 04.

42-موحا أوحمو الزياني (1857- 1921)، المشهور باسم أمحزون بن موسى، قائد قبائل زيان الأمازيغية وأحد أبرز وجوه المقاومة المسلحة ضد الاحتلال الفرنسي، ينظر: حميد السموني، "موحا أوحمو الزياني رمز المقاومة المسلحة في قبائل بني زيان"، مغرس، https://www.maghress.com/almaghribia/169261. استرجع بتاريخ: (08 ديسمبر 2018).

43-جريدة المحرر، "الرجل في سطور"، مرجع سابق.----44-الجابري، "مثال المناضل الواعي"، مرجع سابق.

45-المرجع نفسه. ---46- لاندو، مرجع سابق، ص: 403.

47-JULIEN, op-cit, p : 156./ المرنيسي، مرجع سابق، ص: 35.

48-بن بركة، "نحو مجتمع جديد"، مصدر سابق، ص: 151.

49-JULIEN, op-cit, p : 158.

50-جبرو، مرجع سابق، ص: 78.---51-الورديغي، مرجع سابق، ص: 19.

52-Jean LACOUTURE, le Monde, (13 Juin 1964).

53-جبرو، مرجع سابق، ص: 151.

54-هوبير ليوطي (1854- 1934)، مارشال فرنسي، وأول حاكم فرنسي للمغرب بعد فرض الحماية عليه، من 1912 وحتى 1925، وهو من تولى عملية إخضاع المغرب، ومواجهة أولى المقاومات التي تصدت للاحتلال. ينظر:

Jacques Benoist-Méchin, **Lyautey l'africain ou le rêve immolé: (1854 - 1934)**, (S.E), Perrin, Paris, 1998.

55-الورديغي، مرجع سابق، ص، ص: 19، 20.

56-الجابري، "مثال المناضل الواعي"، مرجع سابق.

57-Jean LACOUTURE, **Cinq hommes el France**, (S. E), Edition du Seuil, Paris, 1961, p : 187.

58-Jean LACOUTURE, le Monde, op-cit.

59-جريدة المحرر، "الرجل في سطور"، مرجع سابق.

60-الورديغي، مرجع سابق، ص: 25.

61-جريدة المحرر، "الرجل في سطور"، مرجع سابق.

62-محمد بن عبد السلام المقري (1845- 1957)، الصدر الأعظم ورئيس الهيئة المخزنية التي كانت تشرف على الشؤون المحلية للمغاربة، وأحد خلصاء الاستعمار الفرنسي، ينظر: ابن سودة، **إتحاف المطالع**، مرجع سابق، ج: 2، ص: 564.

63-المرجع نفسه. / الورديغي، مرجع سابق، ص: 28.

64-ابن سودة، **سل النصال**، مرجع سابق، ص: 196.

65-جريدة المحرر، "الرجل في سطور"، مرجع سابق.

66-المرجع نفسه/ ابن سودة، **سل النصال**، مرجع سابق، ص: 196.

67-عبد القادر صحراوي، "شيخ الإسلام مع الجنرال لابارا بفاس"، جريدة المحرر، عدد: 59، (04 جوان 1965)، ص: 05.

68-المرجع نفسه.

69- لاندو، مرجع سابق، ص، ص: 402، 403.

70-JULIEN, op-cit, p : 153.

71-عبد القادر صحراوي، مرجع سابق.

72-المرجع نفسه.

73-الورديغي، مرجع سابق، ص: 35.

74-إيكس ليبان، اللقاء الذي جمع المسؤولين الفرنسيين مع أطياف الطبقة السياسية المغربية، من أجل تسوية قضية عودة محمد الخامس للعرش، ينظر: ابن سودة، **إتحاف المطالع**، مرجع سابق، ج: 2، ص: 556.

75-الفاطمي بن سليمان، باشا مدينة فاس، والمكلف بتشكيل أول حكومة مغربية في عهد الاستقلال، ينظر: لاندو، مرجع سابق.

76-الفيلالي، مرجع سابق، ج: 12، ص، ص: 225، 227.

77-جريدة العلم، عدد: 1999، (24 نوفمبر 1955)، ص: 01.

78-مبارك البكاي (1907-1961)، باشا مدينة صفرو، أحد قدماء الضباط المغاربة في الجيش الفرنسي، وأحد القواد الذين وقفوا إلى جانب السلطان محمد بن يوسف في أحداث سنة 1953، وأول رئيس حكومة في عهد الاستقلال، ينظر: لاندو، مرجع سابق.----79-جريدة العلم، عدد: 1999، مصدر سابق.

80-الحسن اليوسي (1903- 1970)، زعيم أمازيغي محلي، وأحد القوّاد الذين ساندوا السلطان محمد بن يوسف سنة 1953، أول وزير داخلية في تاريخ المغرب المستقل، ينظر: جون واتروبوري، **أمير المؤمنين الملكية والنخبة السياسية المغربية**، ترجمة: عبد الغني أبو العزم، عبد الأحد السبتي، عبد الطيف الفلق، ط:3، مؤسسة الغني للنشر، الرباط، 2013، ص: 165.

81-جريدة المحرر، "الرجل في سطور"، مرجع سابق. / الورديغي، مرجع سابق، ص: 36.

82-عدي وبيهي، زعيم أمازيغي محلي، وأحد من ساندوا السلطان محمد بن يوسف أثناء خلعه من العرش، عين بعد الاستقلال عاملا على تافيلالت، فتمرد بسبب رفضه لسلطة حزب الاستقلال، ينظر: الزاكي عبد الصمد، **عدي وبيهي: العامل المتمرد**، (د، ط)، مطابع الرباط نت، الرباط، 2015.----83-جريدة العلم، عدد: 2424، (22 يناير 1957)، ص: 01.

84-جريدة العلم، عدد: 3238، (18 يناير 1959)، ص، ص: 01، 06.---85-جريدة العلم، عدد: 2962، (18 أبريل 1958)، ص: 01.

86-أحمد بلافريج (1908- 1990)، أحد مؤسسي حزب الاستقلال والأمين العام التاريخي له، وأول وزير خارجية للمغرب المستقل، وأول رئيس استقلالي للحكومة، ينظر: بيير فيرموريين، **تاريخ المغرب منذ الاستقلال**، ترجمة: عبد الرحيم حزل، ط: 2، إفريقيا للنشر، الدار البيضاء، 2014، ص: 22.

87-عبد الله إبراهيم (1918- 2005)، مناضل وطني ونقابي، شارك في تأسيس حزب الاستقلال والاتحاد المغربي للشغل، رأس حكومة سنة 1958، وكان أحد مؤسسي الاتحاد الوطني للقوات الشعبية وهو أحد رموز اليسار بالمغرب، ينظر: فيرموريين، مرجع سابق، ص: 54.

88-عبد اللطيف جبرو، **المهدي بن بركة بناء الوطن معركة أقوياء النفوس**، (د.ط)، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1986، ص: 249.---89-جريدة العلم، عدد: 3208، (18 ديسمبر 1958)، ص: 01.

90-الورديغي، مرجع سابق، ص، ص: 37، 38.---91-جريدة المحرر، "كان رجلا عظيما"، عدد: 59، (04 جوان 1965)، ص: 01.

92-عبد الرحمن اليوسفي، صحفي ومحام، مناضل وطني تاريخي، وأحد مؤسسي حزب الاتحاد الوطني للقوات الشعبية، رأس حكومة سنة 1998، ينظر: فيرموريين، مرجع سابق، ص: 193.

93-عبد اللطيف جبرو، **المهدي بن بركة في مواجهة العاصفة**، (د.ط)، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1991، ص- ص: 28-34.----94-عبد الرحيم بوعبيد (1922- 1992)، محام ومناضل وطني من أجل الاستقلال، أحد مؤسسي حزب الاستقلال والموقعين على بيان الاستقلال التاريخي سنة 1944، تولى بعد الاستقلال منصب وزير الاقتصاد في عدة حكومات، أحد مؤسسي حزب الاتحاد الوطني للقوات الشعبية وأحد قيادات اليسار المغربي. ينظر: فيرموريين، مرجع سابق، ص، ص: 97، 98.

95-عبد اللطيف جبرو، **المهدي بن بركة في مواجهة العاصفة**، مرجع سابق، ص: 181.

96-المرجع نفسه، ص: 182.----97-نفسه، ص: 194.----98-نفسه.---99-نفسه، ص: 169.

100-صورة المؤتمر التأسيسي، وثيقة منشورة، جبرو، **المهدي بن بركة في الرباط 1962**- 1963، (د.ط)، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1995، ص: 101. / الورديغي، مرجع سابق، ص: 42.

101-جريدة التحرير، عدد: 434، (20 جوان 1961)، ص: 01.

102-المصدر نفسه./ جريدة التحرير، عدد: 435، (21 جوان 1961)، ص: 01.

103-جريدة التحرير، عدد: 729، (28 مايو 1962)، ص: 01. /الورديغي، مرجع سابق، ص: 50.

104-علال الفاسي، "عندما تنتصر الشيخوخة على المشيخة"، العلم، عدد: 4625، (31 مايو 1962)، ص: 01، 04.

105-الورديغي، مرجع سابق، ص، ص: 50، 51. / جبرو، **المهدي بن بركة في الرباط**، مرجع سابق، ص، ص:92، 93.

106-جريدة التحرير، عدد: 881، (25 نوفمبر 1962)، ص: 01.

107-جريدة التحرير، عدد: 891، (05 ديسمبر 1962)، ص: 01.

108-الورديغي، مرجع سابق، ص، ص: 52، 53./ جريدة المحرر، عدد: 59، (04 جوان 1965).